

الثقافة العلمية و الثقافة العامة

الأستاذ: عياد أحمد.

جامعة تلمسان.

الملخص:

يقول (غاستون باشلار): " العقل البشري ليس شابا و إنما عمر بقدر مشاريعه", فمن تأليه الطبيعة و التفكير الخرافي الأسطوري إلى التفكير التأملي الفلسفي , ثم إلى التفكير العلمي المؤسس على التجربة و البرهان , و هكذا تستمر المسيرة الفكرية من اللا معقول إلى المعقول , إلى آن ترتب البيت على شكل ثنائية : طرفها الأول هو العلم و المعقول و المنطق , و الطرف الثاني هو العمل الآلي الاعتيادي الذي يتجافى في كثير من بنياته عن العقل و المنطق , فكانت ثنائية العلم و اللا علم , ثنائية الفكر العلمي و التفكير العامي . إلا أن هذه الثنائية في طرحها و مناقشتها أسالت حبرا كثيرا و شحدث عقولا أكبر , لكن في كل مرة كان طرحها الثاني يختلف عن الطرح الذي سبقه .

المقدمة:

إشكالية العلم واللاعلم طرحت طرحا يبنى أساسا على محاولة تبيان ما بين الخطاب العلمي و الممارسات العامة من فروقات و اختلافات تمس بنيات و تأليفات كل منهما , وكان هذا الطرح في غالبه طرحا فلسفيا ابستمولوجيا يحاول التفرقة بين المعرفة العلمية الخالصة وبين المعرفة العامة، هادفا في الأساس إلى تخلص الأولى من شوائب الثانية، معتقدا أن التفكير العامي نقاط مشينة تقع كعوائق أمام التقدم العلمي، ولذا وجب إحداث قطيعة ابستمولوجية بين الفكر العلمي والفكر العامي.

كما طرحت طرحا ثانيا حاول أن يعقلن الثقافة الشعبية و ذلك باتخاذها كموضوع للثقافة العلمية , وفي هذا الطرح نسجل الكثير من الأعمال التي تنتمي إلى الثقافة الرسمية والتي اتخذت الثقافة غير الرسمية موضوعا لها, ويأتي في طليعة هذه الأعمال سائر الأعمال والدراسات الأنثروبولوجية.

و إلى جانب هذين الطرحين السابقين كان هناك طرح ثالث يحاول أن يحدد العلاقة الموجودة بين الفكر العلمي و الممارسات العامة .

و في صلب هذا الطرح الثالث و الأخير نحاول أن نحدد موقف كل من الثقافة العلمية اتجاه الثقافة العامة, و موقف الثقافة العامة اتجاه الثقافة العلمية, و في إطار ذلك حاولنا أن نركز على مسلمة تاريخية تفيد أن الكثير من الخطابات والطروحات العلمية قديما كانت تلقى عنادا شديدا و مقاومة أشد من قبل الفكر العامي إلى درجة أن بعض منها كان سببا في محاكمة أصحابها و إعدامهم , لكن بعد ذلك فتر هذا الصراع و التحافي إلى أن وصل إلى درجت الانصهار و التعانق بين الفكر العلمي و التفكير العامي .

و على أساس هذه المسلمة نتساءل :

- كيف نقرأ تاريخيا العلاقة بين التفكير العلمي و التفكير العامي؟

- ثم كيف نبرر هذا التحول من الصراع و التضاد إلى الذوبان و التعانق؟

قراءة العلاقة بين الفكر العلمي و الفكر العامي تاريخيا

تقلبات البشرية و تحولاتها لم تكن من الناحية الاقتصادية فحسب : رعي , زراعة و صناعة , و لا من ناحية التركيبية الاجتماعية : مجتمع بسيط ثم مجتمع مركب , بل كذلك من الناحية الفكرية , فمن لا هوت و سحر إلى فلسفة و تأمل ثم إلى علم و تجريد , أي من لا علم إلى علم , وفي هذا يقول الدكتور " إمام عبد الفتاح إمام " : (في استطاعتنا أن نقول أن هناك ثلاثة أنماط من التفكير : هي تفكير رجل الشارع،

وتفكير العالم وتفكير الفيلسوف¹. و ترتب عن ذلك أن كان هناك غمطان من التفكير : نمط التفكير العامي و هو ما أشربت عليه عقول و ممارسات عامة الناس , و نمط التفكير العلمي المبني على التجربة و البرهان و المنطق .

و تاريخيا ظل هذان النمطان من التفكير في تصارع أحيانا و في تعانق أحيانا أخرى, وهذا التصارع و التعانق هو ما على ضوءه يمكن تمثل العلاقة بين الفكر العلمي و الفكر العامي و التي يمكن قراءتها على ضوء ثلاثة مراحل أساسية هي:

أ) مرحلة العداء :

تاريخ البشرية في بعض حقباته و إن كان من جهة يتخذ كشاهد على نبوغ الإنسان و تقدمه و نزوعه نحو المدنية و الحضارة و رفضه للبدائية , و ذلك بفضل الابتكارات و البحوث العلمية المتنوعة و التكنولوجيات الواعدة , إلا أنه من جهة أخرى يتخذ كشاهد على تنكر الإنسان - و أعني الإنسان العادي - للتفكير العلمي السديد و رفضه له , بل في بعض الأحيان حمله على العلم و العلماء , و ذلك تحت مظلات مختلفة , إما تحت مظلة الدين و الفهم غير السليم لنصوصه, أو تحت مظلة العادة و عبادة القلم .

فهذا التاريخ من هذه الزاوية لا يفتأ يحدثنا بنبرة حزينة عن آلام و معانات شديدة لحقت الكثير من العلماء, جرمهم الوحيد أنهم سخرُوا حياتهم للبحث و التفكير و التجربة و محاولة الاهتداء إلى الأصح رغم كونه يخالف القلم المعبود, و من أمثلة ذلك و تحت مظلة الدين و الفهم الخاطئ لنصوصه, نقف و قفة تاريخية و نعيش مشهدا بطله فيزيائي شهير هو " كوبرنيك " و إلى جانبه " جاليلي جاليليو " و كخصم لهما الكنيسة بقساوستها , و التي تصدر أعمالهما و تحاكمهما في بعض الأحيان , وتلجأ إلى إصدار ظهير يحمل تسبيحا يقرأ عقب كل صلاة يلعن فيه " جاليلي " و يعتبر العلوم الرياضية و الفيزيائية علوما شيطانية, الأخذ بها يؤدي إلى الزندقة

والخروج عن الدين. فلقد اعتبر "مصطفى الفواخري" (أن فكرة الأرض كروية

الشكل ملاحظة قلبت الدنيا رأسا على عقب)2

كما أنه في هذا الصدد يقول الدكتور " فيصل عباس " : (ولكن إذا كان (أنجلز) قد أكد أن عصر النهضة هو عصر العمالة في قوة الفكر والعلم والفلسفة والفن، وهو محق في ذلك تماما ، إلا أن هذا العصر هو أيضا عصر عمالة القتل والوحشية والتعذيب، فقد أقلق هؤلاء العلماء المبدعون الكنيسة، وهي أقوى سلطة دنيوية في أوروبا العصور الوسطى، ... وقد سعت الكنيسة بكل ضراوة لإيقاف تقدم الأفكار وإسكات رواد التفكير الحر)3. كما يضيف الدكتور قائلا وواصفا المشهد التاريخي الحزين الذي يتبلور من خلال موقف الكنيسة من العلم والعلماء إذ يقول : (لهذا وجدت الكنيسة نفسها مضطرة إلى إعادة تنظيم محاكم التفتيش ، لتضع حدا لحرية الفكر، وإعادة الاعتبار لسلطة الكنيسة المطلقة، فأصدرت حكم الإدانة بتحريم

المؤلفات العلمية ، ثم بتعذيب العلماء بل وقتلهم)4

كما نعيش مشهدا آخرًا تحت مظلة عبادة القلم أين نجد جميع العقول تجمع على رفض فكرة الطبيب الألماني " هارفي " عن الدورة الدموية و تنكر هذه العقول لهذه الفكرة العلمية رغم صحتها و لا تقبل إلا بعد أربعين سنة .

هذا قليل من كثير، و المشاهد مازالت كثيرة و متنوعة، و أبطالها كثيرون من العلماء و المفكرين، لكن مع كل مشهد نسجل طرفين: طرف الفكر العلمي الذي يأتي لتكسير القديم الخاطئ، و طرف التفكير العامي أو الموروث الشعبي المنغمس في عبادة القديم أو الوفي للفهم الخاطئ للنصوص الدينية، و يظل على هذا الأساس التفكير العامي يحارب التفكير العلمي و يضطهده .

(ب) - مرحلة اللاعداء:

في مرحلة لاحقة عن التي سبقت نجد التفكير العامي أو الإنسان العادي يحاول أن يخفف من عداؤه و حمله على العلم، و لكن ذلك دون أن يأخذ كلية بالعلم ، ويعود

الفضل في محاولة التقريب بين العلم و التفكير العامي لبعض الفلسفات التي راحت
تهندس العقول و تعيد بناءها من جديد, و نذكر في طليعة هذه الفلسفات, فلسفة " رينيه
ديكارت " و فلسفة " إيمانويل كانط " و فلسفة " أوغست كونت " هذه
الفلسفات التي راحت تبين ما بين العلم و اللا علم من فروقات و اختلافات أولاً, ثم
راحت تبين كيف أن اللا علم بينياته و تركيبته يقع كعائق أمام التقدم و البحث
العلمي, و على أساس هذا التحليل و جب الوصول إلى نتيجة تفيد ضرورة حمل العقل
العامي و إعادة تشكيله حتى يتلاءم مع التفكير العلمي و تكون له القدرة على هضم
الخطابات العلمية .

و على هذا الأساس تكون هذه الفلسفات و غيرها مثل فلسفة " بوانكاري " و فلسفة
" غاستون باشلار " و سائر الإبستمولوجيين تهدف إلى محاولة دراسة ما قبل العلم
ونعني بما قبل العلم , دراسة و تهئى التربة أو الوسط الفكري الذي تلقى فيه الفكرة
العلمية .

و بهذه المحاولات نصل إلى صورة أخرى من صور العلاقة بين الفكر العلمي و الفكر
العامي هي ليست صورة عداء لكن ليست كذلك صورة تعانق و إنما فقط صورة لا
عداء .

ج) - مرحلة التقارب :

بعد هذا العمل الجبار الذي قدمته الكثير من الفلسفات في التقريب بين التفكير
العلمي و التفكير العامي, بين العالم و الإنسان العادي, جاءت مرحلة أخيرة هي
مرحلة التقارب و التعانق, أي انجذاب التفكير العامي و استسلامه أمام العقل العلمي
إلى درجة الولع و التقليد و التقديس, و إنما كان ذلك أصلاً عندما مهدت الفلسفات
الأرضية للخطابات العلمية , الأمر الذي جعل البحوث العلمية تكثر و تتنوع , فحقق
بذلك العلم تقدماً أكبر, كان له وقع و ثقل كبيرين على التفكير العامي و الثقافة
العامية .

إلا أن هذا الخضوع نلمسه على مستويين: على المستوى النظري الاعتقادي أين نجد الفرد العادي غير العالم، حتى وإن كان بطريقة تفكيره و طريقة سلوكه يخالف منطق العلم، إلا أنه في قرارة نفسه يجد احتراما و تقديسا كبيرين للعلم و العلماء .

و هنا نجد خاصة في الثقافات العربية العامة إلحاق مقولة الدين بمقولة العلم، و من مشاهد ذلك أنه إذا كانت هناك نقاشات و جدل و أريد لهذا الجدل أن ينتهي فإنه يقال: قال النص الشرعي على غرار ما يقال : أثبت العلماء أنه

.....

ومن هنا نستنتج أن العلم و الطروحات العلمية التي كانت في السابق مرفوضة أصبح لها ثقل النصوص الشرعية، و تحقق ما تشبه الترادف بين مقولة الدين و مقولة العلم . أما المستوى الثاني فهو المستوى العملي التطبيقي إذ نجد الكثير من الثقافات و الأفكار العامة محشوة بالكثير من النظريات العلمية إلى درجة أصبح العلم موروثا شعبيا ، وليس هذا فحسب ، بل أن نزوع الفرد العادي إلى العلم و تثمينه للنظريات العلمية يتجلى من خلال كثير من سلوكاته ، فرفض الفرد العادي عندما يطلب الاستطباب، لزيارة راق أو مشعوذ أو اللجوء إلى أعمال خرافية سحرية كتعليق التمام أو التبرك بتراب قبور ما، أو بتر الآذان والأنوف، رفضه لكل هذا ولجؤه إلى الطبيب هو أكبر دليل تطبيقي يفيد ويؤكد ذلك التقارب الموجود فعلا بين التفكير العامي والفكر العلمي.

أسباب التحول

من بين أسباب التحول من العداء إلى اللا عداء ثم إلى التقارب بين الفكر العلمي

و التفكير

و الممارسات العامة ما يلي :

أ- تعميم التراث العلمي :

لعل أهم ما كان يشعل فتيل الصراع بين الفكر العلمي و الذهنيات العامة فيما سبق هو ذلك الابتعاد الكلي و الانفصال الذريع بين النمطين من التفكير ، فلقد كان النمط الأول أي التفكير العلمي يمثلته العلماء الذين كانوا يعزلون كلية عن عامة الناس ، و على إثر ذلك كان التفكير العلمي فكرا ينشط في المخابر و الدوائر العلمية الضيقة بعيدا عن الممارسات العامة ، في حين كان النمط الثاني أي التفكير العامي يقع خارج هذه الدوائر العلمية ، فهو قد كان يملئ الأسواق و البيوت و النوادي و يصبغ كل السلوكات اليومية العامة ، و على أساس ذلك لم يكن ثمة تواصل أو تلاق بين النمطين من التفكير ، فظل كل واحد منهما يجهل الآخر و يصارعه ، إذ يرى " محمد أركون " في كتابه " الفكر العربي " فيما يخص التاريخ المعرفي للحضارة العربية : " إن ممارسة العلوم العقلية - المنطق، الفيزياء، الميتافيزيقا، الرياضيات، علم الفلك، الطب - تترع إلى أن تكون وفقا على نخبة تستظل بظل حماة كرماء مستنبرون ، أما العلوم الدينية على العكس - السنة، الأخلاق، اللغة، والتقنيات الصوفية وأركان الإيمان وعناصر علم الكلام الأساسية - فإنها تخاطب في المساجد جمهورا أبسط وواسع "5؛ وبذلك يكون التفكير العلمي تفكيرا نخبويا أما التفكير العامي فهو تفكير شعبي.

لكن في مرحلة ثانية و نظرا لتطور البحوث العلمية و تقدمها بفعل فلسفات هندست الخطابات العلمية و أكسبتها مزيدا من النفوذ، أصبح العلم ليس حبيس المخابر والدوائر العلمية الضيقة، و إنما و نظرا لوجود وسائل عدة ساعدت على نشر العلم كالمطابع و وسائل الإعلام و الاتصال خرج العلم من أسره و اقتحم أسواق الناس وبيوتهم و محلاتهم و اكتسح جميع معاملاتهم اليومية ، وفي هذا يقول " مصطفى الفواخري " : (كما أن المعرفة التي هي في خدمة وفي متناول جميع الكائنات العضوية الحية ، تميزت بجدلية خاصة في حياة الإنسان، حيث انتعشت بتطور اللغة ، وازدانت باختراع الكتابة ، وازدهرت في عهد الكمبيوتر ، لتصبح جدليتها مع البشرية تشبه

كرة الثلج ، كلما تدرجت ازداد حجمها وتسارعت في دحرجتها أكثر فأكثر (6). وعلى إثر ذلك أصبحت الأفكار العلمية التي كانت في السابق مرفوضة ، زندقة وإلحاد ، أصبحت فكرة بسيطة تتداولها جميع العقول و تتعاطاها الكثير من الممارسات ، ففكرة الأرض كروية الشكل و أن الشمس مركز الكون ظلت لفترة طويلة فكرة مرفوضة تعود بالكثير من الآلام و المعانات على أصحابها ، لكن حاليا أصبحت فكرة عامة يتعاطاها الخاص و العام .

ب - علمنة المحيط العامي:

تقدم البحوث العلمية و تعميم التراث العلمي لم يكن على المستوى النظري فقط ، بل أن الأفكار العلمية في الغالب ما تتحول إلى تقنيات ، فتكون كل تقنية تعبر عن فكرة علمية ، لأن التقنية فكر صامت أو كما يقول " جان ماري أوزياس " : (إن التقنية لا تتكلم) 7 و نظرا لما وصلت إليه الشعوب الحالية من تطور و تمدن أصبحت هذه التقنيات في متناول جميع الأفراد ، و لما كانت كل تقنية تعكس علما فمعنى ذلك أنه أصبحت الأفكار العلمية في متناول جميع الأفراد ، فلما يمتطي الفرد منا حافلة يجد علما ، و لما يدخل مؤسسة و يجد معدات فمع هذه المعدات يجد علما ، و بهذه الصورة اقتحم العلم المشكل في صورة تقنيات جميع مجالات الحياة عند الأفراد ، وليس هذا فحسب ، بل أن هذه التقنيات ساعدت الإنسان العادي على تذليل صعوبات الحياة لديه الأمر الذي جعله يتعلق بها و منه يتعلق بالعلم و لا يضارعه .

ج - المجتمع الصناعي:

تطور المجتمعات الإنسانية كان من كل النواحي: من الناحية الاقتصادية و من ناحية البنية كذلك ، فمن الناحية الاقتصادية كان في الأول النشاط الزراعي ، الذي كان في البدء قائما على وسائل بسيطة يدوية بدائية ، و لعل أهم ما سمح به النشاط الزراعي هو تعامل الفرد بشكل مباشر مع الطبيعة و الافتتان بها فأضفى ذلك عليه نوعا من الشاعرية و الرومانسية فملأت العناصر الطبيعية وجدانه ومشاعره ، وكان

الحجر الأساس للعاطفة والخيال، فنشأ بذلك الشعر و الأدب و الرسم و الغناء و سائر الفنون .

ثم لما ظهر النشاط الصناعي و اشتد عوده و ظهرت الماكينات و التقنيات و المعدات الصناعية فقد الفرد شاعر يته و رومانسيته فغابت العاطفة والخيال وكان بدلا منهما العقل فاكتسب الإنسان فكرا واقعيا تقريريا لا مجال فيه للخيال و العاطفة، فكان بذلك العلم .

خاتمة

فعلا أنه لما نتحدث عن التاريخ المعرفي للبشرية فإننا بحق نتحدث عن مسيرة فكرية وانتقالات وتحولات وتلونات من نمط إلى آخر ، إلا أن هذه المسيرة الفكرية لا تفهم عن حقيقتها إلا إذا ربطناها بمسيرة أخرى أعم هي المسيرة الحضارية ، التي تمس جميع الجوانب ، وهي في كل ذلك تقوم على قانون أو مبدأ واحد ، هو مبدأ الاستثناس .

إذ الفعل الحضاري هو أصله مجرد استثناس ، فمن استثناس المكان بعدما كان موحشا غير محدد وذلك بفعل العمران ، إلى استثناس الحيوان والنبات فظهرت الزراعة، وبعد اكتشاف النار تم الأخذ في استثناس عناصر الطبيعة الأخرى ، فظهر التصنيع والتعدين ، إلى أن جاء في الأخير استثناس العلم ، فبعدها كانت الأفكار العلمية ، نظرا لغرابتها ، موحشة تم فيما بعد استثناسها ، وعلى ذلك يجب أن يفهم التقارب بين التفكير العامي والفكر العلمي على أنه مجرد استثناس للعلم.

ومهما يكن فإنه يجب في الأخير أن نصرح ، على أنه إذا كانت غيرتنا على العلم دفعتنا إلى إيجاد ابستمولوجيا تحرر العلم من اللاعلم ، فإن غيرتنا اليوم عن ثقافتنا العامة المخشوة بالكثير من الأفكار العلمية تدفعنا إلى إيجاد فلسفة تبحث عن العلم في اللاعلم وتضمنه.

المراجع :

1. د. إمام عبد الفتاح إمام، مدخل إلى الفلسفة. دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1990. ص78
2. مصطفى الفواخري. الحركة العقلية. شواهد تاريخية ومؤشرات بيوسيكولوجية. ط1؛ المؤسسة العربية للدراسة والنشر. بيروت.. 1994. ص18
3. د. فيصل عباس. الفلسفة والإنسان. جدلية العلاقة بين الإنسان والحضارة. ط1؛ دار الفكر العربي ، بيروت، 1997. ص147
4. . فيصل عباس. نفس المرجع. ص148
5. محمد أركون : الفكر العربي . ترجمة عادل العوا. ط2؛ ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982. ص83
6. مصطفى الفواخري. المرجع السابق. ص15
7. جان ماري أوزياس. الفلسفة والتقنيات. ترجمة عادل العوا. ط2؛ منشورات عويدات، بيروت، 1983. ص25